

تفسير البحر المحيط

. @ 30 @ .

لاتحاد الجملة . لكنه قد يؤتى في الجملة الواحدة بالمظهر قصداً للتفخيم . والإشارة في قوله : تلك ، وتلوين الخطاب في فأمّا الذين اسودّت وجوههم أكفرتم ، والتشبيه والتمثيل في تبيض وتسودّ ، إذا كان ذلك عبارة عن الطلاقة والكآبة والحذف في مواضع . .
{ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } قال عكرمة ومقاتل : نزلت في ابن مسعود ، وأبي بن كعب ، وسالم مولى أبي حذيفة ، ومعاذ بن جبل ، وقد قال لهم بعض اليهود : ديننا خير مما تدعوننا إليه ، ونحن خير وأفضل . وقيل : نزلت في المهاجرين . والذي يظهر أنها من تمام الخطاب الأول في قوله : { مَسِّتَقِيمٍ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ } وتوالت بعد هذا مخاطبات المؤمنين من أوامر ونواهٍ ، وكان قد استطرّد من ذلك لذكر مَنْ يبيض وجهه ويسودّ ، وشيء من أحوالهم في الآخرة ، ثم عاد إلى الخطاب الأول فقال تعالى : كنتم خير أمةٍ تحريضاً بهذا الإخبار على الانقياد والطواعية . والظاهر أنّ الخطاب هو لمن وقع الخطاب له أولاً وهم : أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم) ، فتكون الإشارة بقوله : أمة إلى أمةٍ معينة وهي أمة محمد صلى الله عليه وسلم) ، فالصحابة هم خيرها . .

وقال الحسن ومجاهد وجماعة : الخطاب لجميع الأمة بأنهم خير الأمم ، ويؤيد هذا التأويل كونهم { شُهِدَاءَ عَلَى النَّاسِ } وقوله : { نَحْنُ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ } الحديث وقوله : { نَحْنُ } . .
وطاهر كان هنا أنها الناقصة ، وخير أمة هو الخبر . ولا يراد بها هنا الدلالة على مضي الزمان وانقطاع النسبة نحو قولك : كان زيد قائماً ، بل المراد دوام النسبة كقوله : { عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيماً دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً } { وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِزْنَهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً } وكون كان تدل على الدوام ومرادفه لم يزل قولاً مرجوحاً ، بل الأصح أنها كسائر الأفعال تدل على الانقطاع ، ثم قد تستعمل حيث لا يراد الانقطاع . وقيل : كان هنا بمعنى صار ، أي صرتم خير أمة . وقيل : كان هنا تامة ، وخير أمة حال . وأبعد من ذهب إلى أنّها زائدة ، لأن الزائدة لا تكون أول كلام ، ولا عمل لها . وقال الزمخشري : كان عبارة عن وجود الشيء في من ماض على سبيل الإبهام ، وليس فيه دليل على عدم سابق ،

ولا على انقطاع طارئ . ومنه قوله تعالى : { وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا } . . .
ومنه قوله : كنتم خير أمة ، كأنه قيل : وجدتم خير أمة انتهى كلامه . فقوله : أنها لا
تدل على عدم سابق هذا إذا لم تكن بمعنى صار ، فإذا كانت بمعنى صار دلت على عدم سابق .
فإذا قلت : كان زيد عالماً بمعنى صار ، دلت على أنه انتقل من حالة الجهل إلى حالة
العلم . وقوله : ولا على انقطاع طارئ قد ذكرنا قبل أن الصحيح أنها كسائر الأفعال يدل
لفظ الماضي منها على الانقطاع ، ثم قد تستعمل حيث لا يكون انقطاع . وفرق بين الدلالة
والاستعمال ، ألا ترى أنك تقول : هذا اللفظ يدل على العموم ؟ ثم تستعمل حيث لا يراد
العموم ، بل المراد الخصوص . وقوله : كأنه قال وجدتم خير أمة ، هذا يعارض أنها مثل
قوله : { وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } لأن تقديره وجدتم خير أمة يدل على أنها
تامة ، وأن خير أمة حال . وقوله : وكان غفورا لا شك أنها هنا الناقصة فتعارضا .
وقيل : المعنى : كنتم في علم الله . وقيل : في اللوح المحفوظ . وقيل : فيما أخبر به الأمم
قديمًا عنكم . وقيل : هو على الحكاية ، وهو متصل بقوله : { فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ }
هَمْزٌ فِيهَا خَالِدُونَ { أي فيقال لهم في القيامة : كنتم في الدنيا خير أمة ، وهذا
قول بعيد من سياق الكلام . وخير مضاف للنكرة ، وهي أفعال تفضيل فيجب إفرادها وتذكيرها ،
وإن كانت جارية على جمع . والمعنى : أن الأمم إذا فضلوا أمة كانت هذه الأمة خيرها .
وحكم عليهم بأنهم خير أمة ، ولم يبين جهة الخيرية في اللفظ وهي : سبقهم إلى الإيما
برسول الله صلى الله عليه وسلم) ، وبدارهم إلى نصرته ، ونقلهم عنه علم الشريعة ،
وافتاحهم البلاد . وهذه فضائل اختصوا بها مع ما لهم من الفضائل . وكل من عمل بعدهم
حسنة فلهم مثل